مقال: الإنصياع للوحشية

إن إيمان الإنسان بالحرية، وترويضه النفس على عدم الانصياع لأي شخص مهما كانت النتائج سلبية على المستوى الشخصي وحده –برأيي الخاص– من ينجي الإنسان من الوقوع في جريمة مثل هذه، أما والإنسان قد تعود على أن يكون عبداً ومتبوعاً فهو معرض بنسبة كبيرة لارتكابها، وعندها لا يمكن لي أن أبرئ المتبوع لأن طبيعته البشرية اقتضت ذلك!

في عام ١٩٦٣ قام ستانلي ميلغرام بإختبار مشهور في علم النفس الإجتماعي يعنى بدراسة مدى الإنصياع للسلطة بعنوانه "دراسة سلوكية للطاعة" وكان الهدف من الدراسة قياس مدى إستعداد المشاركين الإطاعة سلطة تأمر بتنفيذ ما يتناقض مع ضمائرهم.

التجربة تشمل ثلاثة مشاركين يجلس الرئيس والمعلم المتطوع في نفس المكان، ويجلس التلميذ في غرفة أخرى على أن يتمكن المعلم من سماعه، يقرأ المعلم على التلميذ مجموعة من المفردات ويطلب إليه حفظها، ثم يبدأ بسؤاله عنها وهذه هي النقطة الحاسمة من الإختبار، فعند كل خطأ يقع فيه التلميذ على المعلم أن يستخدم بشكل متصاعد جهازاً للصعق الكهربائي تتراوح شدته بين ٣٠ إلى ٤٥٠ فولت.

في الواقع جهاز الصعق الكهربائي لا يعمل ولكن التلميذ يمثل الإصابة بالتزامن مع أصوات صراخ مسجلة مسبقا، ومع ارتفاع الفولتية يبدأ التلميذ بضرب جسده في الحائط والشكوى من مرض في قلبه، هنا أتوقف لأسأل نفسي وأسألكم: هل يمكن لي أو لك أن نستمر بإجراء تجربة نمارس فيها مثل هذه القسوة على إنسان بريء مقابل ٢٠ دولارا ؟ في الظروف العادية نحن ندعي الطيبة والمثالية، ولا نتصور بأننا –أو أي شخص عاقل– يمكنه فعل ذلك، لكن نتائج إختبار ملغرام أثبتت أن الكثير من الناس قادرون على

الاستمرار في تجربة مخيفة كهذه بدم بارد، فحوالي ٦٥% من المشتركين وصلوا إلى الدرجة الأقصى من الفولتية، ٤٥٠ فولت. بل إن بعض المشاركين أظهر متعة بسماع أصوات صراخ الضحية؛ وفي هذه التجربة أثبت ميلغرام كيف يقع الناس في الجريمة والعنف إذا أصبحوا متبوعين وأقنعوا بألا ذنب لهم في الأمر.

فكلما أظهر أحد المشتركين تردده في الاستمرار كان الرئيس يستخدم معه ألفاظا تحفيزية تخلي مسؤوليته مما يفعل، %١٠٠ من الرجال لم يظهروا عزماً على عدم الاستمرار قبل ٣٠٠ فولت يفسر ميلغرام نتائج تجربته بأنها تشرح كيف أنه وبإمكان أي مواطن عادي أن يسبب آلاماً لأشخاص قد لا يعرفهم، لسبب بسيط، وهو أنه يتلقى الأوامر من المسؤول عن التجربة، فما نحن إلا موظفون / أتباع.

واما عن درجة إنصياع الأفراد لأوامر السلطة هي مسألة تتطلب بحثاً وتفسيراً قد يلقي الضوء، ولو قليلاً، على ما تشهده البشرية من قتل ودمار وعنف بأيدي بشر يشاركونهم الهواء والأرض.

والسؤال الذي طرحه ميلغرام في تجربته تلك هو عما إذا كان هناك إحساس مشترك بأخلاقية تلك الجرائم عند الذين تورطوا بها، ليصل بعدها إلى نتيجة أن أولئك المتورطين كانوا يتبعون الأوامر، بغض النظر عن مخالفتها أو تعارضها مع ما يؤمنون به من أخلاق وقيم؛ التجربة تكررت أكثر من مرة، وفي أكثر من مجتمع، ومع ذلك جاءت نتائجها متقاربة جداً.

وفي سياق منسق فإن أقبح الجرائم التي حدثت تاريخيا تلك التي ارتكبتها الجماهير تحت التأثير الطاغي لقادتها أو لعقائدها –ليس شرطاً أن تكون عقيدة دينية ولكنها الأقوى تأثيرًا– وقد كان الباحثون النفسيون في أوروبا خلال فترة طويلة ينظرون بسلبية مطلقة إلى أي جمهور من الناس، فوصفوا الجماهير بالمجانين تارةً سواء أكانوا جماهير كرة قدم

أم جماهير تابعين لقائد عسكري ووصفوهم بالرعاع الهمجيين تارةً أخرى، وأخيراً أصبغوا على الجماهير صفة الإجرام وأصبحت أي مجموعة من الناس تكون جمهوراً –في نظر الكثير من الباحثين– قادرة على ارتكاب أبشع الجرائم.

والحقيقة أنني أستغرب هذه الفكرة التي تتناسى وجود الجماهير الصالحة في الحضارات الإنسانية، لكن إذا تأملنا في الجرائم التي ارتكبتها الجماهير الأوروبية في العصور الوسطى أو حتى خلال الثورة الفرنسية فسنفهم لماذا فكر الباحثون بهذه الطريقة.

وسأتحدث عن جريمة جماهيرية بشعة حدثت أثناء الثورة الفرنسية وذكرها أحد مؤسسي علم النفس الاجتماعي غوستاف لوبون في كتاب سيكيولوجية الجماهير.

تعرف الجريمة بإسم مذبحة سبتمبر في باريس وقد بدأت في تاريخ ٢ سبتمبر من عام ١٧٩٢م واستمرت خمسة أيام متتالية، حيث حدث الهجوم الأول حين تم نقل ٢٤ من الكهنة إلى سجن يدعى L'Abbaye ، فهجم عليهم جمهور من الثوار الفرنسيين الناقمين على الكنيسة الرومانية الكاثولوكية –٣٠٠ من الرجال الحرفيين والحدادين والإسكافيين والوسطاء التجاريين وقليل من الأوغاد– فقتلوا جميع الكهنة، ثم استمرت الذبحة لتطال ١٢٠٠ من المسجونين من بينهم نساءأرستقراطيات وما يقارب مئة طفل.

المشاهد التي نقلها شهود للذبحة مروعة جداً، ولا تزال فرنسا تتحدث عنها بحزن حتى الآن، وجدت إحدى السيدات من طبقة النبلاء وتدعى الأميرة متي دي لامبلي مغتصبة ومشوهة ومنتهكة، وقد انتزع أحد الرجال قلبها وقام بأكله، وأجبرت سيدة صغيرة على شرب دم أحد الضحايا نظير الحفاظ على حياة والدها.

لكن شيئًا آخر بعيداً عن هذه الوحشية هو ما أثار إهتمام غوستاف لوبون في المذبحة، وهي بعض الأخلاق الغريبة التي أظهرها مرتكبو الجريمة، يقول لوبون هم مقتنعون بأنهم ينجزون واجباً وطنياً، إنهم يقومون بوظيفة مزدوجة، فهم في آن معاً القضاة والجلادون

ولا يعتبرون أنفسهم مجرمين إطلاقاً، ثم يصف تلك الأخلاق فيقول: "كانوا مثلاً ينقلون إلى طاولة اللجان كل المال والجواهر التي وجدوها في جيوب الضحايا، أثناء القيام بالمجزرة يخيم على الجميع نوع من الفرح اللطيف والجميل، فهم يغنون ويرقصون حول الجثث ثم يصفون المقاعد للسيدات السعيدات بمقتل الأرستقراطيين، كانوا مقتنعين بأنهم قد استحقوا منة الوطن، فتوجهوا إلى السلطات طلباً للمكافأة، بل وإن أكثرهم حماساً راحوا يطالبون بالميداليات".

إن من المفزع أن نرى إلى أي مدى يمكن للإنسان أن يلغي عقله وضميره فينصاع للوحشية تحت ضغط أي من المسميات الطاعة للسلطة، تطبيق القانون، أو غيرها؛ دون أي محاولة لاعتراض أو احتجاج؛ وإن الطبيب الذي يرتكب جريمة على النمط الذي كشف عنه مبلغرام، وكذلك المعلم الذي يكلف التلاميذ الصغار ما لا طاقة لهم به فيحمل يستجيب لأوامر مدير المستشفى أو أنظمتها الجائرة ويمتنع عن علاج مريض لأسباب قانونية أو مادية، والفرق بين هؤلاء وبين قاتل تابع أو رجل مشترك في تجربة ميلغرام هو اختلاف الظروف والمناخ فقط.

أنتم –وأنا– معرضون أيضًا لارتكاب جريمة كهذه، نعتقد ونحن نمارسها بأننا غير مسؤولين عما يحدث للضحية فما نحن إلا موظفون / أتباع مسيرون قدراً، لكننا لسنا بمجرمين، إنه شيء يشبه التنويم للغناطيسي، ربما نقع فيه على مستويات أقل في حياتنا العامة ووظائفنا، فكم آذينا من بريء بينما نعتقد أن لا ذنب لنا في ما نفعله فاللوم يقع على من يصدر علينا الأوامر؟